مشكلة أسبانيا

لا يقتصر التاريخ فى أسبانيا على أن يعيد نفسه كما يقولون ، بل إنه يعيد نفسه مراراً ويناقض نفسه تكراراً . فما من بلد تواترت أحداثه وتشابهت ، وتباينت آراء أهله وتناقضت ، مثل أسبانيا بما حفل به تاريخها من ثورات وحروب وتطورات متشابهة حيناً ومتناقضة حيناً آخر . وهل هناك بلد مثل أسبانيا ازدهر فيه الإسلام ونمت أصوله وفروعه واتتشرت آدابه وعلومه ونُفّذت أحكامه وتعاليمه أكثر من خمسمائة عام ، ثم لم يكد المسلمون يبعدون عن البلاد على أثر ارتدادهم أمام هجمات الإمارات المسيحية الناهضة فى شمال أسبانيا حتى غشيت البلاد صيحة الكنيسة الكاثوليكية ، فملكت على الناس عقولهم وتحكمت فى آرائهم وحرياتهم ، ونشطت بين ظهرانيهم محاكم التفتيش فقضت على ألوف الأبرياء من المسلمين واليهود والمسيحيين الأحرار ، لا لذنب اقترفوه سوى أنهم أطلقوا لأنفسهم حرية الفكر والاعتقاد مخالفين بذلك الوحدة الدينية الكاثوليكية التى اعتنقها الناس وتضافرت الكنيسة والحكومة على تحقيقها ولو أدى ذلك إلى إحراق الأفراد ومحاربة الشعوب .

وهل مثل أسبانيا أمة واتتها الفرصة فامتلكت فى أوربا الأراضى المنخفضة ونابلى والبرتغال ، ووافاها الحظ السعيد فكشف لها كرستوف كولمب عن أمريكا وصارت إليها خيرات الدنيا الجديدة وما فى أرضها من ذهب وفضة ومعادن أخرى احتكرت أسبانيا استخراجها ونقلها إلى بلادها ، حتى أصبحت فى فترة وجيزة سيدة البحار وأكثر بلاد العالم مالا وأعز نفراً . ولكن ما كاد أهل البلاد يرتعون فى بحبوحة هذا النعيم وذلك الثراء المفاجئ حتى أخلدوا إلى الدعة والبذخ وأسرفوا فى الاستهلاك بقدر ماأهملوا فى الإنتاج ، واستولى عليهم الغرور فاستكبروا وظنوا أن محاكم التفتيش قد تيسر لهم الوحدة السياسية كما يسرت لهم الوحدة الدينية ، فأقاموها فى الأراضى المنخفضة لمحاكمة الثوار الذين

آزرتهم إنجلترا . وما هى إلا سنوات قلائل حتى تحرك أسطول أسبانيا العظيم المعروف « بالأرمادا » يغزو سواحل إنجلترا ، فكانت الهزيمة الماحقة وكان السقوط والانحدار من شامخ المجد إلى الدرك الأسفل .

وبقدر ماكان ارتفاع أسبانيا خاطفاً وعظيما كذلك كان اضمحلالها شاملا وسريعاً ، فجعلت تفقد ممتلكاتها واحدة تلو أخرى ، مبتدئة بالأراضى المنخفضة والبرتغال فى القرن السابع عشر ، ثم بنابلى فى أوائل القرن الثامن عشر ، وماانتهى القرن التاسع عشر حتى كانت أسبانيا قد خسرت مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية ، ولم يبق لها سوى جزر الفلبين فى الشرق الأقصى ، وكوبا وبورتوريكو فى أمريكا . وهذه البقية لم تلبث أن وقعت أيضاً غنيمة سهلة فى يد الولايات المتحدة عقب انتصارها فى الحرب الأمريكية الأسبانية فى نهاية القرن الماضى .

على أن أسبانيا على رغم ما أصابها من ركود وضعف وخمول لم تزل طوال تلك القرون إلى الآن مصدراً لأزمات دولية حادة أدت فى أكثر من مرة إلى إثارة الحروب بين الدول .

١ — ففى سنة ١٧٠٠ مات شارل الثانى آخر ملوك أسرة هابسبرج فى أسبانيا دون أن يعقب من يخلفه ، فقامت بين الدول حرب ضروس هى حرب الوراثة الأسبانية التى استمرت إلى سنة ١٧١٣ ، وفيها وقعت قلعة جبل طارق الشهيرة فى أيدى الإنجليز ، وانتهت الحرب بأن اعتلى عرش أسبانيا أمير من أسرة البوربون هو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ومن ثم نشأت الصلة الوثيقة التى ربطت بين أسبانيا وفرنسا إلى زمن قريب .

٢ — وفى سنة ١٨٠٨ صمم نابليون وكان فى أوج سلطانه على التدخل فى شؤون أسبانيا وتعيين أخيه يوسف ملكا عليها ، فأسر ملكها فرديننند السابع ودخلت قواته مدريد ، وقام الشعب الأسبانى بأول ثورة قومية فى أوربا ضد نابليون ؛ فكانت هذه مقدمة لنهضة شعوب أوربا ضد النظام الذى فرضه نابليون عليها بالقوة .

٣ — وفى سنة ١٨٢٢ قامت فى أسبانيا ثورة عسكرية ضد فرديننند السابع لخنثه فى يمينه وعدم احترامه لدستور سنة ١٨١٢ الذى وضعه الثوار ، فاستنجد فرديننند بمؤتمر الدول الذى انعقد فى فيرونا ، فقامت فرنسا بقمع الثورة ودخل

الجيش الفرنسى أسبانيا وأعاد الملك إلى عرشه وبقى محتلا البلاد ست سنوات .

٤ — وفى سنة ١٨٣٣ مات الملك فرديننـد السابع ولم يعقب سوى ابنة صغيرة ، فانقسمت أسبانيا إلى معسكرين عظيمين جعلا يتنازعان السيطرة فى البلاد : حزب يناصر الملكة الصغيرة إيزابلا الثانية ومعها أمها ماريا كرستينا الوصية على العرش ، وحزب يناصر أخا الملك دون كارلوس الذى اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعى فى التاج مستنداً إلى أن النساء ليس من حقهن أن يعتلين العرش .

وكان الجيش وأهل المدن والأحرار عامة ينتمون إلى الملكة ومن ورائهم الحكومتان الفرنسية والإنجليزية ، وكان رجال الدين والأشراف والفلاحون يناصرون دون كارلوس وتسندهم الحكومات الرجعية فى وسط أوربا . ومن ثمة شبت أول حرب أهلية فى البلاد ، فعمت الفوضى وملئت البلاد رعباً ، وأخذ كلا الجانبين يتنافسان فى التنكيل بمعارضيهم وصب الكوارث على رءوسهم حتى أقفرت البلاد ووقف دولاب الأعمال . واستمر هذا التطاحن المخيف ست سنوات انتهت بانسحاب الكارلوسيين ، وبقيت الملكتان وبطانتهما يقترفون من الشرور والآثام ما لطخ التاج الأسبانى بالوحل ودنسه بالعار .

٥ — وفى سنة ١٨٦٨ ثار الشعب على الملكة إيزابلافنفيت من أسبانيا ، وسارعت أسرة هو هنزلرن فى بروسيا إلى ترشيح أمير من أمرائها لاعتلاء عرش أسبانيا . فما كاد هذا الخبر يصل إلى مسامع نابليون الثالث إمبراطور فرنسا حتى ثارت ثائرته وخاف أن تصبح فرنسا محصورة بين نارين تشعلهما أسرة هوهنزلرن من بروسيا شرقا ومن أسبانيا جنوبا ، فكلف سفيره فى برلين أن يحتج على هذا الأمر وأن يطلب إلى ملك بروسيا أن يسحب ترشيح الأمير البروسى رسميًّا ، وأن يعد بعدم ترشيح أمير بروسى لعرش أسبانيا مرة أخرى . وكان هذا الموقف داعياً إلى إثارة الحرب الفرنسية البروسية التى انتهت بهزيمة فرنسا وكانت من أقوى البواعث على إثارة الحرب العالمية الأولى .

ولقد استعادت أسبانيا عقب الحرب الفرنسية البروسية أسرتها الملكية بعد تجربة قصيرة لحكم الجمهورية الأولى ، فأقامت سنة ١٨٧٤ الفونس الثانى عشر ابن الملكة إيزابلا ملكا عليها ، وكان على نقيض أسلافه ملكا مصلحاً اكتسب وهو فى المنفى مع أمه خبرة وصلابة ودرساً ، فبدأ فى أسبانيا عهد

إصلاحات شملت جميع مرافق البلاد ، وأهمها توطيد الأمن بالقضاء على العصابات الكارلوسية ، وتهدئة العناصر المتطرفة باعادة الدستور والحكم البرلمانى وإصلاح مالية البلاد والنهوض بالصناعة والتجارة . ولما مات فى سنة ١٨٨٥ كانت شؤون البلاد الداخلية والخارجية قد استقرت بدرجة ساعدت الملكة الوصية على مواصلة العمل فى جو هادئ لم تفسده الثورات والانقلابات . ولم يخلف الملك فى حياته وارثا للعرش ، ولكن حدث بعد وفاته بستة أشهر أن وضعت الملكة وارثا ذكراً هو الفونس الثالث عشر .

واستمرت حركة الإصلاحات يقوم بها الوطنيون من الأحرار والمحافظين الذين جعلوا يتناوبون الحكم تباعا ، وقدموا لوطنهم فى تلك الفترة أجل الخدمات. ومع أن الحرب الأمريكية الأسبانية التى نشبت فى سنة ١٨٩٨ قد انتهت بضياع أملاك أسبانيا فى عرض البحار كما قدمنا ، فإن هزيمة أسبانيا وإذلالها فى نظر الدول قد خلق فى الأسبان روحا جديدة حفزتهم إلى العمل بعزيمة صادقة للنهوض من كبوتهم واستعادة تالد مجدهم . وما هى إلا سنوات قلائل حتى زخرت أسبانيا بطائفة من كبار الكتاب والعلماء والمؤرخين والفنانين. وافتتحت المناجم ووفدت على البلاد رءوس الأموال الأجنبية ، فقامت المصانع والمعامل وراجت الأسواق . وبعد أن كانت أسبانيا ركناً منعزلا فى جنوب أوربا الغربى لا تكاد الدول تحس وجوده بل تراه جزءاً خاملا أقرب صلة بإفريقية منه بأوربا ، عادت أسبانيا فى أوائل القرن العشرين أمة عزيزة الجانب لها مكانتها بين الدول . فلم يكد ينشب الخلاف بين الدول بشأن مراكش حتى وجدت فرنسا أن من مصلحتها أن تعقد معاهدة مع أسبانيا فى سنة ١٩٠٤ كما عقدت معاهدة الاتفاق الودى مع انجلترا . واعترفت فرنسا لأسبانيا فى تلك المعاهدة بامتداد نفوذها فى المنطقة الشمالية الغربية من مراكش ، وفيها ميناء سبتة ذات الموقع الاستراتيجى الخطير أمام جبل طارق .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى احتفظت أسبانيا بحيدتها ، ونالت من وراء ذلك كسباً ماديًّا ودوليًّا ؛ إذ نشطت فيها حركة التجارة والنقل وخطبت ودها الدول المتحاربة . وكانت الحكومة ورجال الأعمال والطبقات الوسطى تميل إلى جانب الحلفاء على حين كان رجال الجيش والكنيسة ينحازون إلى جانب ألمانيا . فلما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء كانت أسبانيا فى مقدمة الدول التى

دعيت لتأسيس عصبة الأمم، وأخذ شأنها الدولى يكبر حتى فازت بمقعد فى مجلس العصبة.

غير أن انتصار المبادئ الديمقراطية بعد الحرب وظهور الحركة البلشفية فى روسيا واطراد تقدم البلاد من الوجهتين الصناعية والعمالية، قد أدى إلى انتشار المبادئ الاشتراكية فى بيئات المدن الصناعية، فتزح إلى البلاد عدد من الفوضويين ونشأت جماعات متطرفة نادت بالجمهورية وإلغاء الرهبنة والأديار والجماعات الدينية الكاثوليكية، وتضاعف عدد هذه الجماعات المتطرفة فى أسبانيا على أثر تأميم التعليم فى فرنسا ومنع رجال الدين من مزاولته، كما زادتهم ثورة البرتغال ضد الملكية فى سنة ١٩١٠ قوة إلى قوتهم. وقد تفاقمت الحال وازدادت سوءاً بسبب اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ومحاولتهم تنفيذ رغباتهم بالقوة، وكان لما أصاب الجيش من الخزى والتخاذل أمام قبائل الريف فى مراكش الأسبانية أثره فى نشوء حركات فى داخل الجيش. يضاف إلى ذلك ظهور الخلافات المتأصلة بين أهل الشمال وهم سكان المناطق الصناعية وأهل الجنوب وهم المشتغلون بالزراعة، ثم رغبة إقليم كتالونيا فى شمال شرقى أسبانيا فى الانفصال عن أسبانيا، وهو إقليم له لغته وتاريخه واقتصادياته وفيه ميناء برشلونة المشهور. ويبلغ عدد سكان هذا الإقليم ستة ملايين من مجموع سكان أسبانيا الذى يبلغ ٢٥ مليونا.

لكل ذلك لم يكن عجيباً أن يعم السخط والتمرد، وأن تكثر الاعتداءات على الملك وعلى الوزراء — وقد اغتيل منهم فى هذه الفترة عدد غير قليل — وأن يشتد النزاع بين الحكومة ورجال الدين، وبينها وبين جمعيات الجيش الدفاعية. وقد دعا ذلك كله فى النهاية إلى ظهور الدكتاتور الأسبانى الأول بريمو ده ريفيرا Primo de Rivera فى سنة ١٩٢٣.

وقد كان ده ريفيرا قائداً حربياً لمنطقة كتالونيا، وكان معروفاً بكفايته وغيرته الوطنية، فنادى بالثورة على الحكومة وهدد الوزراء باعتقالهم إذا لم يتخلوا عن مراكزهم. وجاء الملك من مصيفه فى سان سبستيان وعينه رئيساً للحكومة، وأطلق عليها حكومة الإدارة، فألغى الوزارات وعطل الدستور وأعلن الأحكام العرفية مع ما يقتضيه ذلك من منع المظاهرات وفرض رقابة شديدة على الصحف.

وقد سار ده ريفيرا فى حكمه سيراً حكيماً أنجز فيه إصلاحات شاملة وبخاصة فى نظام الجيش وفى مراكش وفى ناحية الأشغال العامة والعمال. وفى هذه الفترة

زار الملك الفونسو إيطاليا ومعه ده ريفيرا، واستمدا من الدوتشي العون والبركة لنجاح الدكتاتورية فى أسبانيا، وعقدت بين البلدين معاهدة صداقة كانت أول توجيه دولى لسياسة أسبانيا الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى.

واستمر ده ريفيرا يعمل دون أن يحدّ من سلطانه دستور أو برلمان صحيح مدة سبع سنوات. وأخيراً استيقظ الوعى الأسبانى وعادت إليه سليقته، فثار على النظام الملكى الدكتاتورى، فسقط ده ريفيرا، ونفى الملك الفونسو من البلاد بعد أن حُرِم حقوقه المدنية. وقامت حكومة جمهورية فى سنة ١٩٣١ وكان رجالها مشبعين بالمبادئ الاشتراكية، فأعادوا الدستور، وحرروا التعليم لأول مرة من سلطان رجال الكنيسة، وأدخلوا إصلاحات اجتماعية بشأن توزيع الأراضى وتنظيم العمل. وكان الاعتدال رائدهم فى أول الأمر فسارت الأمور سيراً شعبيًّا مرضياً. ولكن الاعتدال أمر لا يوافق أمزجة الأسبان ولا يتلاءم مع طبيعة البلاد الجبلية وجوها القارى، فهم دائما مسوقون إلى التطرف والمغالاة والتقلب من خمول واستسلام إلى ثورة وعنف وتخريب، ثم من الثورة والعنف إلى الخمول والاستسلام مرة أخرى، وهكذا دواليك. وليس بين كل نقيضين من هذه النقائض إلا فترة وجيزة يستجمون فيها ويستعدون لدورة أخرى. لذلك لم يكن غريباً أن ينتصر حزب اليسار من الجمهوريين فى انتخابات سنة ١٩٣٦ وأن تظهر آثار التطرف الجديد فى عدائهم للكنيسة ومصادرتهم لأملاكها وتعرضهم لحرية العبادة ولحقوق كبار الملاك وغير ذلك، مما جعل الناس يعتقدون أن الحكومة الجديدة إنما تعمل على إقحام البلاد فى نطاق النظام الشيوعى، وهو نظام إن وافق أهواء أهل المدن والأقاليم الصناعية مثل كتالونيا فانه غريب على كثرة الشعب الذين درجوا فى أحضان الكنيسة وعاشوا فى ظل الإقطاع دهوراً طويلة.

وعلى ذلك تجمعت العناصر التى أذكت نيران الثورة الوطنية العسكرية بزعامة فرنكو ضد نظام الجمهورية. وكان زعيم الثورة، على ماجرى به العرف فى تاريخ أسبانيا، من ضباط الجيش. وكان فرنكو متوليا رياسة أركان حرب الجيش وحاكما على جزر قناريا أو الخالدات فى أغسطس سنة ١٩٣٦ حين طار إلى تطوان فى مراكش الأسبانية ليرأس الثورة. وقد انضم إليه جميع ضباط الجيش ونصف قوات الأسطول. وفى أكتوبر سنة ١٩٣٦ أعلن فرنكو نفسه رئيساً للدولة،

وأخذ ينظم حكومته على أساس دكتاتورى فاشستى ، وقد انضمت إليه الأقاليم الواقعة جنوبى أسبانيا ووسطها وشماليها الغربى ، أما الشرق والشمال الشرقى فظل مواليا للحكومة الجمهورية ، وقد استعاضت الحكومة عن الجيش بتسليح العمال وأفراد الشعب .

وسرعان ما تحولت الحرب الأهلية فى أسبانيا إلى مظهر من مظاهر الكفاح الدولى بين المبادئ الفاشستية التى يمثلها فرنكو ومن ورائه إيطاليا وألمانيا وبين المبادئ الاشتراكية الدولية التى عرفت فى ذلك الوقت بالجبهة الشعبية وتمثلها حكومة الجمهورية وتؤازرها فرنسا وروسيا . وكان تأييد الدول للمعسكرين المتحاربين فى أسبانيا نظريًا وسريًا فى أول الأمر ، ثم أخذ هذا الميل يتحول تدريجاً إلى حرب حقيقية لا ينقصها سوى الإعلان الرسمى ؛ فكانت إيطاليا ترسل إلى فرنكو جيوشها ومدافعها ، وألمانيا تمده بدباباتها وطائراتها ومهندسيها وعمالها الفنيين . وكانت فرنسا شديدة العطف على الجمهوريين فأرسلت لمؤازرتهم الكتيبة الدولية ، وكذلك روسيا كانت عظيمة الاهتمام بمصاير الجمهوريين فأمدتهم بالأسلحة والطائرات . ولكن شتان بين ما كانت ترسله إيطاليا وألمانيا وما كانت تستطيعه روسيا بسبب المسافات الشاسعة التى تفصل روسيا عن أسبانيا . لذلك تفوقت قوات فرانكو وأخذت تستولى على معاقل الجمهوريين حصناً بعد حصن ، حتى سقطت مدريد فى ابريل سنة ١٩٣٩ بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وقد حالفهم النصر لتفوقهم فى الطائرات والمدفعية والتغذية . ولما استتب الأمر لفرنكو غادر زعماء الجمهوريين البلاد وتفرقوا بين فرنسا وأمريكا اللاتينية . ولم يسع الدول فى آخر الأمر سوى الاعتراف بحكومة الجنرال فرنكو .

وقد سار فرنكو فى حكمه سيرة فاشستية ، فألف حزب الفلانج Falange على نمط الحزب الفاشستى فى إيطاليا ، وجمع فى يده السلطات كلها ، ولكنه انتهج فى سياسته خطة وطنية بحتة راعى فيها مصلحة أسبانيا قبل كل شىء . فقد حاولت دولتا المحور ضم أسبانيا إليهما فى محالفة عسكرية فاعتذر فرنكو بنقص استعداده وعدم كفاية موارده ، وآثر أن تبقى أسبانيا وهى لا تزال فى دور النقه بعيدة عن مزالق السياسة الدولية مكتفياً بموافقته على ميثاق مكافحة الشيوعية فى مايو سنة ١٩٣٩ . ومما دل على سياسة فرنكو الوطنية أنه لم يلق

بالاً إلى رغبة إيطاليا فى ضم إحدى جزر البليار إليها لتتخذها قاعدة تعرقل منها نشاط فرنسا وإنجلترا فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وقد أكد فرنكو خطته الاستقلالية عند ما اعلنت الحرب العالمية الثانية . ورأى مع بالغ الدهشة أن هتلر قد تعاقد مع روسيا البلشفية التى كانت تناهض ثورة الوطنيين الأسبان ، فسارع فرنكو باعلان حيدة أسبانيا . فلما انقلب هتلر على روسيا وهاجمها فى صيف سنة ١٩٤١ ، لم ير فرنكو بدًّا من الاستجابة إلى رغبة حزبه فى الانتقام من روسيا ، فأرسل الفرقة الزرقاء من متطوعى الأسبان للقتال فى الميدان الشرقى إلى جانب الألمان ، وبذلك أرصد فرنكو لأسبانيا فى ذمة روسيا ديناً ثقيلا من المقت والبغض والعداوة .

ولم يكن ميل كثرة الأسبان فى هذه الحرب كما كان فى الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء ، بل كان ميل الرأى العام الوطنى ، على العكس ، إلى جانب دول المحور . ومع ذلك لم يضعف فرنكو أمام ألمانيا المنتصرة التى احتلت فرنسا ، ولم يبق ثمة ما يفصلها عن أسبانيا سوى جبال البرانس . ولو أن ألمانيا فى ذلك الوقت اخترقت شبه جزيرة إيبريا لهددت جبل طارق ، ولتعذر على الحلفاء أن ينزلوا بجيوشهم على ساحل إفريقية الشمالى لمناهضة قوات رومل . وتدل الوثائق التى نشرتها الولايات المتحدة أخيراً على أن اتفاق فرنكو مع دولتى المحور كان قيد البحث ، وأنه طالب بجبل طارق ومراكش الفرنسية ثمناً لانضمامه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، واكتفى هتلر بأن اتخذ من سواحل أسبانيا مخابئ للغواصات الألمانية ومحطات تتغذى منها سفنها وطائراتها .

ويقول فرنكو فى الدفاع عن خطته أنه عاون الفرنسيين الأحرار أيضاً فى اثناء الاحتلال الألمانى ، ولم يحل دون اتصالهم بساحل إفريقية الشمالى . وكل ما استفادته أسبانيا من انحلال فرنسا أنها أعلنت انتهاء النظام الدولى فى طنجة وضمتها إلى حكمها .

ولما لاحت فى أفق الدول المتحاربة بوادر النصر ، بدأ فرنكو يستمع إلى رغباتهم ، فأبطل تصدير بعض المعادن التى كانت تفيد منها ألمانيا عسكريا ، وأبعد « سيرانو سونر » وزير خارجيته المتطرف فى مبادئه الفاشستية ، وحاول أن يستغفر لخطاياه الماضية ولكن بدون جدوى ؛ فقد ظلت تهمة الفاشستية لاصقة به ، وما نشبت الحرب إلا للقضاء على النظم النازية والفاشستية . وإذن فلم يكن

هناك معنى وقد انتصرت المبادئ الديمقراطية لإبقاء الحلفاء على دولة فاشستية قد تصبح بعد قليل من الزمن عشًا تبيض فيه النازية وتفرخ من جديد . لذلك لم يدع الحلفاء فرصة لإعلان مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة فى أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بقيت أسبانيا بمعزل عن مجموعة الأمم المتحدة ، وفقدت ما كان لها من مزايا فى طنجة ، وكاد الروس ينجحون فى ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمى الحرب .

والآن تبدو مشكلة أسبانيا معقدة غاية التعقيد ؛ فإن الجمهوريين من الأسبان قد استغلوا الفرصة الدولية الحالية وأنشأوا لهم فى المكسيك حكومة جمهورية رئيسها « باريوس » Barrios ورئيس حكومتها « جيرال » Giral من وزراء أسبانيا السابقين . وتجمّع الجمهوريون أخيراً جنوبى فرنسا عند « تولوز » وأخذوا يتربصون الفرص للزحف عبر البرانس على أسبانيا ، وهم يعدون خططهم سرًا وعلانية لقلب حكومة فرنكو دون حاجة إلى إراقة الدماء كما يقولون . ولكن كيف يكون ذلك ؟ وإلى جانب الجمهوريين هناك الملكيون ، وهم قد نشطوا كذلك نشاطاً عظيماً ، وانتقل الأمير « دون جوان » بن الفونس الثالث عشر المطالب بالعرش من سويسرا إلى انجلترا ومنها إلى البرتغال ، واتخذ له ولأتباعه مقرًا قريباً من لشبونة حيث استقبله سفير أسبانيا وهو شقيق فرنكو . والجنرال فرنكو لا يعادى الملكية فى أسبانيا ؛ فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد فى سنة ١٩٣٨ الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو . ويقولون إن هناك اتفاقاً سريًا على أن تعود الملكية إلى أسبانيا فى الوقت الذى يراه فرنكو مناسباً

وتختلف الدول فيما بينها على طريقة التخلص من حكومة فرنكو : ففرنسا وروسيا تريدان العمل المباشر ضد فرنكو بوساطة هيئة الأمم المتحدة . أما بريطانيا وأمريكا وسائر الدول الديمقراطية فانها تصرح بآرائها ضد فرنكو ولكنها لا تريد أن تقبع القول بالعمل وتفضّل أن يقوم الشعب الأسبانى باختيار الحكومة التى توافق إرادته فى ظل استفتاء برلمانى صحيح .

وقد أعلن مستر بيفن وزير خارجية انجلترا عند ما تولت وزارة العمال الحكم « إن نظام الحكم فى أسبانيا مسألة تخص الشعب الأسبانى . . . وإن أى تعرض

من جانب الدول لشؤونها الداخلية لابد أن يثير الشعب الأسبانى ويجعله يؤيد فرنكو فى موقفه ضد هذا التدخل الأجنبى » . وجاء فى البيان الثلاثى الذى أرسلته انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى أسبانيا فى أوائل مارس أنه «ليس فى النية التعرض لشؤون أسبانيا الداخلية ، فإن على الشعب الأسبانى نفسه أن يعمل لتكييف مصيره » .

وأضعف حلقة فى نظام فرنكو أنه وليد التدخل الأجنبى ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب لحكمه . وإن حكومة لاتستند فى حكمها على رغبة الشعب الحقيقية لاتستحق أن تعيش . ومع ذلك فهاهم أولاء الجمهوريون يلوذون بحكومتى فرنسا وروسيا ويستنصرونهما على حكومة فرنكو . وها نحن أولاء نرى حكومة فرنسا لا تكتفى بإرسال البيان الثلاثى ، بل تنفرد فتعلن أسبانيا بأن الحدود بين البلدين مغلقة ، وها هو ذا فرنكو يستثير حماسة الشعب فيرد على الإنذار بمثله ويعلن إغلاق الحدود بينه وبين فرنسا ، ويزيد على ذلك حشد جيش عظيم من حزب الفلانج لحراسة الحدود .

وأغلب الظن أن فرنسا لن تترك أسبانيا حرة فى تنظيم بيتها ؛ لأن فرنسا لا تزال تعتبر أسبانيا امتدادا جغرافيًّا لها ، ولأنه يهمها أن تصون المواصلات بينها وبين مستعمراتها فى شمال إفريقية عن طريق أسبانيا برًّا وجزر البليار التابعة لأسبانيا بحرا . فإذا لم تكن حكومة أسبانيا موالية لفرنسا تعرضت مواصلات فرنسا ومصالحها الحربية فى أوربا وإفريقية لأعظم الخطر .

ولكننا نشك فى أن تستطيع فرنسا الآن وهى فى مرحلة دقيقة من تاريخها أن تؤيد الجمهوريين فى أسبانيا بالقوة ، لا سيما أنها تعرف أن جيش فرنكو لا تنقصه الكفاية أو الاستعداد . والجمهوريون وحدهم غير قادرين على قهر فرنكو مالم يتّجه البندول الوطنى فى أسبانيا نحو الثورة . فهل استجم الشعب الأسبانى واستعاد نشاطه إلى الدرجة التى تدعوه إلى تكرار مأساة سنة ١٩٣٦ ؟ وإذا تكررت المأساة ولم ينتصر فيها فرانكو فهل هناك ما يمنع أن تدور الحلقة المفرغة دورتها ويظهر فرانكو آخر من جديد ؟ هذه هى مشكلة أسبانيا .

محمد رفعت